Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكن أن نلاحظ أن أول ما يستحضره المختار السوسي ما يسميه بـ (تمييز الأشياء) (ص 214)، أي ما يمكن تسميته بالذاكرة الأيقونية، تلك المرتبطة بالحواس، وبالعين تحديدا. والاستحضار هنا يصلح محددا لبداية التعرف، أو للمرحلة التي تمنح الطفولة طابع الاكتشاف، فتنجذب نحو المغريات، وتشرع في «توثيق» مظاهر الوجود الذاتي (الرؤية تكون بالعين ص214). وعلى هذا المستوى فإن المختار السوسي لا يستحضر، في طور التمييز، سوى واقعتين: الرؤية بالعين لا بالفم، والفرق بين اللوح والقرطاس. الواقعة الأولى ترتبط بالذات (أو التكوين) والثانية بالأشياء (أو بالتجربة). ثم لا نعرف، بعد ذلك، كيف أمكن للمؤلف أن يستذكر كثيرا من الوقائع المتصلة بالطفولة، في حين نراه يشكو باستمرار من (خرم) ذاكرته، كما لا نستطيع الإطمئنان إلى أن جميع ما يستحضره قد تلبس بالنسيان، فهو يستعين طورا بأخيه، ولكنه في مواقع كثيرة من سيرته الذاتية لا يحيل إلا على ذاكرته الشخصية. أي أن المختار السوسي يتردد بين الذات والأشياء والذاكرة والعوامل المساعدة، وما جاور ذلك من الحوافز التي قد تساعد على بناء ماضي الطفولة. وسنحاول أن نرى ذلك من خلال أربع مستويات تتصل كلها بالذاكرة :

الذاكرة /الماضي - وتنبني هذه العملية على مؤشرين: الحاضر، الذي هو الباعث على الاستذكار والعودة إلى الخلف. وينطلق هذا المؤشر من لحظة الكتابة نفسها، ولعلها تستند إلى قرار واع بإحياء فترات أسبق من الوجود عن طريق الاستحضار. ولذلك نجد أن ما يستحضره المختار السوسي هو جملة الوقائع والمشاهد والتجارب التي مرت بها حياته. وسوف لن يعنينا هنا كثيرا ما يشير إليه باستمرار من انخرام ذاكرته، الشيء الذي يمكن أن يفهم منه، أن الاستحضاريشوبه عطل ما، فلا يحقق الغاية من العودة، بوصفها إعادة تكوين أو إنجاز لما قد يكون تحقق ماضيا. حسبنا أن نشير إلى أن الذاكرة/ الماضي، من خلال هذا المؤشر، تستدعي، على وجه العموم، مسلسلا من الأحداث يخضع لمنطق التذكر. وربما كان الأهم من ذلك أن المسلسل هذا يبدو محكوما بتواتره، فهو يتقدم في زمنه كلما تقدم المختار السوسي، الطفل هنا، في الزمن، ثم تراه يتبع فضاءاته بما تشتمل عليه من رموز ومؤثرات.

أما المؤشر الثاني فهو الماضي نفسه، لا كصيغة لبناء الهوية، كما أشرنا إلى ذلك في السابق، ولكن كمجال للوقائع والأحداث، يحمل في معناه دلالة البدء. فيكون هذا البدء بمثابة المنطلق الذي يصعد نحو الحاضر/ الكهولة، تاريخ الكتابة، وزمن التذكر.

والواقع أن الذاكرة /الماضي، عبر هذين المؤشرين، هي التي تصوغ مبتدأ التاريخ الفردي، وتصعد معه في مسرى التطور، وصولا إلى المراحل اللاحقة. وأقصد أن الذاكرة/الماضي هي التي تطلعنا على تشكل السيرورة وانبنائها وفق آلية التقدم، أي